**في رحاب أبي عبيدة!**

**عبداللطيف بن عبدالله التويجري**

العظمةُ في أعذبِ أحوالها، الأمانةُ في أَرْوَعِ أثوابِها، الأخلاقُ في أحسن آدابِها.

كانَ رجلًا نحيفًا، جميلَ الوجهِ، بديعَ التَّواضعِ، أُوتيَ حظًّا وافرًا، ونصيبًا طيِّبًا مِنْ كَمَال الطَّلْعَةِ، وروعةِ المُحيَّا.

يقولُ عنهُ مُعاذُ بنُ جبلٍ: ما أزعمُ أنِّي رأيْتُ مِنْ عبادِ اللهِ عبدًا قطُّ أقلَّ غمزًا، ولا أبرَّ صدرًا، ولا أبعدَ غائلةً، ولا أشدَّ حُبًّا للعاقبةِ، ولا أنصحَ للعامَّةِ مِنْ بطلنا هذا اليوم!

أحدُ السَّابقينَ الأوَّلينَ، والمؤمنينَ المُبادرينَ، له تاجٌ كبيرٌ، ووسامٌ شهيرٌ، يبقى فخرًا لَهُ على مرِّ الزَّمانِ= قلَّدَهُ إيّاها المُربّي الأعظمُ، والمعلِّمُ الأكرمُ، صلى الله عليه وسلم، فقال: "إنَّ لكلِّ أُمِّةٍ أمينًا، وأمينُ هذهِ الأُمَّةِ هو رجل هذه الخطبة"!

تأتي معركةُ أحدٍ ليسجِّلَ فيها هذا الرجل مِيْزةً تاريخية، وسَبْقًا لَمْ يَفُزْ بِهِ سواهُ، دارَتْ الدّائرةُ على المسلمينَ، وقَوِيَتْ شوكةُ المشركينَ، فقتلُوا مِنْ المسلمينَ خَلْقًا كثيرًا، وأحدثُوا الهزيمةَ في صفوفِهِم، ولَمْ يكنْ ذلكَ كلُّهُ مُرْضِيًا لَهُم، بَلْ كانوا يبحثونَ في لَهَفٍ، ، لِقَتْلِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-.

وفي تلكَ اللَّحظاتِ الخطيرة، والمواقفِ المهيبةِ، الَّتي انكشفَ فيها المسلمونَ عَنْ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-، وكادَتْ رماحُ الأعداءِ وسهامُهُم أَنْ تنالَ منْهُ، وأصابُوهُ بالحجارةِ، وأصيبَتْ رباعيتُهُ، وشُجَّ في رأسِهِ، أقبلَ هذا البطل يطيرُ طيرانًا إلى النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-، ثمَّ انكبَّ عليهِ، وجعلَ ظهرَهُ دونَ نَحْرِ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم-، ونظرَ إلى رسولِ الله فبكَتْ عينُهُ، وخَفَقَ قَلبُهُ، ورجفَتْ جوارحُهُ، حين رأى الدَّمَ يسيلُ على وجهِهِ وهُوَ يقولُ: كيفَ يفلحُ قومٌ شجوا وجهَ نبيِّهِم، وهُوَ يدعُوْهُم إلى الله؟ رواه ابن ماجه.

وبَقِيَ في وجهِهِ -صلى الله عليه وسلم- حَلْقتانِ مِنْ المِغْفَرِ من ضربةٍ أصابتْه، فأرادَ أبو بكرٍ -رضي الله عنه- وغيرُه مِنْ الصَّحابةِ إِخراجَها، فسألَهُم هذا البطل الهُمام باللهِ أَنْ يُخَلُّوا بينَهُ وبينَها، فخافَ أَنْ يُحَرِّكهَا بيدِهِ ليستخرجَها فتؤلمَ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم-، فأمسكَ إحدى الحَلقَتينِ بِثَنِيَّتِهِ فانْتَزَعَهَا بقوةٍ، فوقعَ على ظهرِهِ وقد سقطَتْ ثَنِيَّتُهُ معَها، فأرادَ أبو بكرٍ أَنْ يَنْزِعَ الثّانيةَ، فَأقسمَ عليهِ مرة أخرى، فأمسكَها بِثَنِيَّتِهِ فاقتلعَها، وسقَطَتْ ثَنِيَّتُهُ الأُخْرَى، فأصبحَ أَثْرَمَ ، فزادَهُ اللهُ بذلكَ الثرمِ جَمَالًا، حتّى قيلّ: لّمْ يرَ في النّاسِ أحسنُ ثرما مِنْه! فلله دره من أبي عبيدة عامر بن الجراح!

**أبا عُبيدَةَ.. والآدابُ ماثلةٌ**

**تُهْدِي أفانينَها المُثلَى لمن نَظَرَا**

**مَنَاقِبٌ تُلهِبُ الإحساسَ رائعةٌ**

**أمامَ عينَيَّ تَسْبي اللُّبَّ والفِكَرا**

**ماذا سنَرْوي من المجدِ العظيمِ لِمَن**

**بكلِّ وصفٍ جميلٍ كانَ مُشْتَهِرا**

تُوفِّيَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- فلَمْ تنقطِعْ مسيرةُ أبي عبيدةَ الجهاديَّةُ، وكتَبَ اللهُ لَهُ أَنْ يحظى بشرفِ قيادةِ جيوشِ الإسلامِ الَّتي فتحَتْ بيتَ المقدسِ، وفتحَتْ الشّامَ كلَّه.

وكان أبو عبيدةَ في عهد أبي بكرٍ أميرًا على حمصَ، أمّا في خلافةِ عمرَ فقَدْ ولّاه على جيوشِ المسلمينَ بالشّامِ جميعًا.

ولا تعجب حينئذ أن تسمع ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه-يقول: أخلّائي مِنْ أصحابِ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثةٌ: أبو بكرٍ، وعمرُ، وأبو عبيدةَ.

وفي الرِّحْلِةِ الشامية لِعمرَ حدَثَ موقفٌ آخرُ لا يقلُّ في عظمتِهِ وروعتِهِ عَنْ الأوَّلِ؛ إذ قاَل عمُر: يا أبا عبيدةَ، اذهَبْ بِنا إلى منزلِكَ. أرادَ عمرُ أن يطَّلِعَ على وضعِ أميرِهِ المحبوبِ، يريدُ أَنْ يعرفَ منزلَهُ، ومستوى معيشتِهِ، فعرفَ أبو عبيدةَ أَنَّ المنظرَ لَنْ يَسُرَّ عمرَ، ولكنَّ عمرَ أصرَّ على موقفِهِ.

فلمَّا جاءَ إلى البيتِ فإذا بمنزلٍ قديمٍ، وبنيانٍ مهدَّمٍ، فدخلَ فلَمْ يجدْ فيهِ شيئًا إلّا سيفَ أبي عبيدةَ، فقالَ في عجبٍ واستغرابٍ: أينَ متاعُكَ؟ لا أَرى إلا لِبدْا أو صفحةً، وأنتَ أميرٌ! أعندكَ طعامٌ؟ فقامَ أبو عبيدةَ إلى جَوْنةٍ فأخذَ منها كسيراتٍ مِنْ خبزٍ يابسٍ؛ فانهارَ أميرُ المؤمنينَ بالبكاءِ لهذا المشهدِ! يبكي عمرُ وأبو عبيدةَ يهدِّئ مِنْ روعِهِ، ويقولُ لهُ: يا أميرَ المؤمنين، هذا يُبَلِّغُني المقيلَ. قَالَ عمرُ: غَيَّرَتْنا الدُّنْيا كلُّنا، إلَّا أنتَ يا أبا عبيدةَ!

يا اللهُ! يا اللهُ! مِنْ أَيِّهِمَا نعجبُ؟ ماذا تغيَّرَ فيكَ يا عمرُ وقَدْ نَحُلَ جسمُكَ، واسوَدَّ جلدُكَ مِنْ أكلِ الخبزِ اليابسِ والزَّيْت، ماذا تغيَّر فيكَ وقدْ اتَّخَذَت الدُّموعُ خطَّيْنِ أسودينِ على وجهِك، يا لَهَا من عظمةٍ! لا تجدها إلا في رجال مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم.

كانَ أبو عبيدَةَ ممَّنْ جمعَ القرآنَ الكريمَ، وكانَ ممَّنْ روى الأحاديثَ عَنْ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-، وقَدْ عَطَّرَ الدُّنْيَا، وأسعدَ الألبابَ، وأمتعَ الأسماعَ بكلماتٍ له سائرةٍ، وعباراتٍ عاطرةٍ.

وكانَ لا يسمحُ لِذَرَّةٍ مِنْ ذرَّاتِ الكِبْرِ، أو دافعٍ مِنْ دَوافع الخيلاءِ أَنْ تسريَ إلى نفسِهِ، أو تتسرَّبَ إلى وجْدَانِهِ، فحينَ رأى النّاسَ يعجبونَ بإمارتِهِ، ويتحدَّثونَ عَنْ عظمتِهِ، ويهتفونَ بشجاعتِهِ قامَ فيهم خطيبًا فقالَ: "يا أيها الناسُ! إني مسلمٌ مِنْ قُرَيشٍ، وما مِنْكُم مِنْ أحدٍ أحمرَ ولا أسودَ يَفْضُلُني بتقوى إلا وَدِدْتُ أنّي في إهابِهِ".

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَالسّابِقونَ الأَوَّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنصارِ وَالَّذينَ اتَّبَعوهُم بِإِحسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضوا عَنهُ وَأَعَدَّ لَهُم جَنّاتٍ تَجري تَحتَهَا الأَنهارُ خالِدينَ فيها أَبَدًا ذلِكَ الفَوزُ العَظيمُ﴾.

**الخطبة الثانية**

وهكذا ظَلَّ هذا المجاهدُ العظيمُ يفتحُ البُلدانَ، وينشرُ الإيمانَ، وينيرُ الأوطانَ، حتّى ظَهرَ بالشّامِ في بلدةِ عَمْواسَ مرضٌ مُهْلِكٌ، وطاعونٌ فاتكٌ، فبدأَ يحصدُ النَّاس حَصْدًا، وإذا بِجُثَثِ المسلمينَ تتهاوى بالآلافِ المُؤلَّفَةِ مِنْ هذا الطّاعونِ المُذهِلِ الَّذي ذهبَ ضحيَّتَهُ أعدادٌ هائلةٌ مِنْ كِبَارِ الصَّحابةِ -رضيَ اللهُ عنهم-.

وحِيْنَ رأى عمرُ هذا الخطرَ الدّاهمَ، والموتَ الزُّؤامَ، أرادَ أَنْ يصنعَ حيلةً لأبي عبيدةَ ليخرجَهُ مِنْ الشَّامِ كي ينجوَ مِنْ الطّاعونِ، فكتبَ إليهِ عمرُ: إنَّهُ قَدْ عرضَتْ لي حاجةٌ، ولا غِنى بي عنكَ فيها، فعجِّلْ إليَّ"، فلمّا قرأَ الكتابَ، عرفَ قصدَ عمرَ فكتبَ إليه: إِنِّي قَدْ عَرفْتُ حاجتَكَ، فحَلِّلْنِي مِنْ عزيمتِكَ، فإني في جندٍ مِنْ أجناد المسلمين لا أرغبُ بنفسي عنهم. فلمّا قرأَ عمرُ الكتابَ بكى!

وحيْنَ رأى أبو عبيدةَ أصحابَهُ يتهاوَوْنَ واحدًا واحدًا، ويفتكُ بِهِمْ الطّاعونُ، وهُوَ لا يزالُ سليمًا معافًى، اتَّجه إلى ربِّهِ، ورفعَ كَفَّيْهِ قَائلًا: اللَّهُمَّ! نصيبَكَ في آلِ أَبي عُبيدةَ! فخرجَتْ في كفِّهِ بُثْرَةٌ صغيرةٌ، فَفَزِعَ منها أصحابُهُ، وعرفُوا أنَّه بدايةُ الطَّاعون في جسدِ أَبي عُبيدةَ، فلمّا رأى خوفَهُمْ وقلقَهُمْ نظرَ إليهم مبتسمًا ثُمَّ قالَ: والله! ما أحبُّ أنَّ لي مكانَها حُمُر النَّعمِ!.

بدأَ المرضُ يشتدُّ، والكربُ يَعْظُمُ في جسد أبي عبيدة، فيأتي إليهِ زُوَّارُهُ، فيستقبلُهُمْ بإيمانٍ وثيقٍ، ويقينٍ عميقٍ، ثمَّ يعطِّرُ أسماعَهُمْ بشيءٍ مِنْ أَحاديثِ المُصطفى -صلى الله عليه وسلم-، ينظرُ إلى زُوّارِهِ والمرضُ يفتكُ بِهِ، والطّاعونُ يَلْتَهِمُ أحشاءَه، فلَمْ يجعلْهُمْ يخرجُوا حتّى يضوَّعَ مجلسَهُمْ بدُرَرِ كلامِهِ العذبِ فيقول لهم: إنِّي مُوْصِيْكُمْ بوصيَّةٍ، إِنْ قبلتمُوها لَنْ تزالوا بخيرٍ: أقيموا الصلاةَ، وآتُوا الزَّكاةَ، وصُومُوا شهرَ رمضانَ، وتصدَّقوا، وحُجُّوا، واعتمرُوا، وتواصَوْا وانصحُوا لأمرائِكُمْ ولا تغشُّوهُمْ، ولا تُلْهِكُمْ الدُّنْيا، فإِنَّ امرأً لَوْ عَمَّرَ ألفَ حولٍ ما كانَ لَه بُدٌّ مِنْ أَنْ يصيرَ إلى مصرعي هذا الذي ترونَ، إنَّ اللهَ كتبَ الموتَ على بَني آدمَ فهُمْ ميِّتُونَ، وأكْيَسُهُمْ أَطْوَعُهُم لربِّهِ، وأعملُهُمْ ليومِ معادِه.

ثمَّ شخصَ أبو عبيدةَ ببصرِهِ للسَّماءِ وهُوَ يُتَمتِمُ: أشهدُ أَنْ لا إِلَه إلَّا الله، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله؛ ثمَّ فاضَتْ روحُهُ، ورحلَ إلى ربِّهِ.

وجَاءَ الخبرُ إلى عمرَ -رضي الله عنه- فبكى لوفاةِ أبي عبيدةَ، وبكى الصحابةُ، وخيَّمَ على المدينةِ ليلٌ مِنْ الحزنِ، فأمسَتْ القُلوبُ لها أنينٌ، والصُّدورُ لها أزيزٌ، والأفئدةُ لها نشيجٌ، تذكروا ذلك القلب الكبير، والسيرة العطرة، والمواطنة الصالحة، والنصح الصادق! وإذا لم تبك القلوب على مثل أبي عبيدة فعلى من تبكي إذن؟! فرحمك الله أيها البطل!

لذلكم يا عباد الله لم يكنْ عمرُ لِيَنْسى أبا عبيدَةَ أبدًا، فها هُوَ يدخلُ في يومٍ مِنْ الأيّامِ على بعض أصحابِةِ وهُمْ يتمنَّوْنَ أُمنيّاتٍ متعددةٍ، فقالُوا لعمرَ: تمنَّ يا أميرَ المؤمنينَ! فأطرقَ عمرُ في حزنٍ وألمٍ، وتحدَّرَتْ عَيناهُ بالدُّموعِ، ثمَّ قَالَ : أتمنّى بيتًا ممتلئًا رجالًا مثلَ أبي عبيدةَ بنِ الجرَّاحِ!